العرب
الأربعاء 2021/04/28
السنة 43 العدد 12044

حاييم الزعفراني يفند تاريخ اليهود المليء بالدموع

من الأجداد القشتاليين إلى القرن العشرين.. كتابات تحيي تراث اليهود في المغرب

يعتبر المفكر والمؤرخ المغربي حاييم الزعفراني من أبرز أعلام يهود المغرب، حيث ساهم طيلة عقود من البحث في إحياء تراث ثقافي عريق لليهود المغاربة بعيدا عن النظرة الاستشراقية أو السياسية أو الاستعمارية الضيقة. فحفر في الملامح الحقيقية لليهود ووطنهم المغرب والتي تفند الصورة الخاطئة التي رسخها الفكر الغربي من أن اليهود كانوا مضطهدين ومشتتين.

ليهود المغرب تراث ثقافي عريق

محمد الحمامصي
كاتب مصري

هل استطاع المؤرخ اليهودي حاييم الزعفراني الذي يعد واحدا من أهم الباحثين اليهود المغاربة، في كتابته المتعددة استنطاق موروث ديني وأدبي وفكري لطائفة يهودية أقامت في بلاد المغرب زهاء ألفي سنة؟ هل ما قدمه في كتاباته كاف لمعرفة التراث اليهودي المغربي؟ وهل دراسة قضايا الفكر والتربية والتعليم التي تقلد الزعفراني أمرها كافية للتعريف بالواقع اليهودي، وبالتالي تحقيق نهضة يهودية تخلص اليهود المهمشين من واقع الشتات الثاني المأزوم؟ هل سار في كتاباته على نفس المسار الذي تناولت به الدراسات المكتوبة باللغة الفرنسية الوضع اليهودي في المغرب؟

تساؤلات سعى الباحث المغربي المتخصص في الفكر اليهودي والثقافة الشعبية عبدالسلام شرماط أن يجيب عليها في كتابه "يهود المغرب في كتابات حاييم الزعفراني".

إعادة الروح للتراث

يقول شرماط في كتابه، الصادر عن مؤسسة مؤمنون بلا حدود، إن يهود المغرب عاشوا في حالة تساكن وتعايش كبيرين مع المسلمين طوال قرون تاريخية، تمتعوا فيها بحرص السلاطين والملوك على رعايتها، باعتبارها حقوقا يضمنها لهم الشرع الإسلامي مقابل أداء الجزية في ظل قانون الذمة، غير أن التدخل الأجنبي خلخل هذا التعايش، زاعما أن اليهود عاشوا في المغرب الإسلامي اضطهادا كبيرا منذ استقرارهم فيه، ما قاد العديد من الدارسين إلى الاهتمام بوضع اليهود والبحث في حياتهم من نواح مختلفة؛ التاريخي منها والاجتماعي والاقتصادي والقانوني والفكري.

> الكاتب حاول تحطيم أسطورة الشتات في عالم الفكر اليهودي المغربي عامة والأدبي والشعري خاصة

ويرى الباحث أن الزعفراني قد تصدى إلى مثل هذه المزاعم، حيث أكد الزعفراني أن اليهود عاشوا في أمن واستقرار تولد منهما حنين كبير في ما بعد لأرض الأجداد، بل قاده تعلقه بطائفته إلى تناولها في كتاباته تناولا مختلف الأنحاء ومتعدد الاتجاهات؛ منها ما اهتم بالتعليم والمجتمع، ومنها ما اهتم بالشعر والأدب الشعبي، غايته في ذلك إحياء التراث اليهودي وفق بحث منهجي للوثائق الموجودة في الفكر اليهودي، ارتكازا على أشكال تعبيرية مختلفة؛ فالإبداع الأدبي: المكتوب والشفوي لا قيمة لدراسته بمعزل عن أشكال الفكر الأخرى، ولذلك فهو جزء لا يتجزأ من التاريخ؛ فكل إبداع أدبي وكل فكر هو مصدر للتاريخ، بل إن كتابة التاريخ يمكن أن تكون انطلاقا من السيميولوجيا والرسم والفلكلور والأدب والموسيقى.

ويشير شرماط إلى أن هدف الزعفراني من كل ذلك كان ضمان الحفاظ على تراث فكري روحي أورثه الأجداد القشتاليون واليهود المغاربة أحفادهم، حيث عرفت المجموعات المغربية، طوال القرون الأربعة الأخيرة المظلمة من تاريخ المغرب، كيف تحفظ تلقائيا كنز الثقافة الذي تسلمته لإنعاشه وبعث الحيوية فيه وإخصابه، كلما توفرت الشروط الملائمة لذلك. واستطاعت الجماعات فعل هذا في وقت كانت تعيش فيه تحت طوق مزدوج، نتيجة انعزال البلد نفسه عن كل حضارة غربية وتقوقعها، هذا التقوقع الذي كان يمنع أي اتصال فعال مع العالم الخارجي.

ويرتبط الهدف الثاني لهذا النشاط الثقافي ارتباطا وثيقا بالهدف الأول؛ فهو يبرز القيم الشمولية لليهودية، وفي الوقت نفسه يعد مرآة تعكس رؤية الجماعة لذاتها، ووسيلة للتعبير عن عالم لم يكشف منه إلا القليل لحد الآن، ما حفز الزعفراني على ضرورة البحث، وكلف نفسه مهمة إعادة الروح لهذا التراث الثقافي اليهودي الموروث منذ العصر الذهبي للعبرية – العربية التي عاشت على أرض الإسلام، وبالتالي توضيح النشاط الوقاد الديني والفكري، وجو الروحانية المتفائلة اللذين سادا في وسط الطوائف المنسية، وقد أبدعت هذه الطوائف، بالرغم من هذا النسيان، إنتاجا أدبيا تضمن مساهمات لا يستهان بها في مجال التراث الفكري الذي ارتبط بموطنهم الأصلي، أو الوطن الذي فتح لهم ذراعيه، لاستقبالهم من جهة، أو ارتبط بالآداب الإنسانية والعلوم اليهودية من جهة أخرى.

ويتابع شرماط أن مشروع الزعفراني جاء مقسما إلى قسمين كبيرين: الأول قسم يتعلق بدراسة التعليم اليهودي والأدب الشفاهي والمكتوب. والثاني قسم يشمل الفكر اليهودي ومختلف أشكاله التعبيرية، والذي حصره الزعفراني في القرون الأربعة الأخيرة. وفي ما بعد، تخطى الرجل هذه القرون ليضع بين أيدينا كتابات تضمنت مشاهد عامة من حياة اليهود في المغرب، مشاهد جمعت بين التاريخي والاجتماعي.

ويقول "كان شغل الزعفراني الشاغل هو تحطيم أسطورة الشتات (الدياسبورا) في عالم الفكر اليهودي المغربي عامة، والأدبي والشعري خاصة، إذ كان همه هو إعلان شمولية الفكر اليهودي، ووضع مبدأ لوحدته العضوية، مؤكدا على الترابط الذي هيمن على علاقات الحياة الفكرية اليهودية في المغرب، والتي تعد جزءا لا يتجزأ من الفكر اليهودي العام".

رفض تاريخ الدموع

يؤكد شرماط أن الزعفراني كلف نفسه مهمة البحث في التراث اليهودي قبل التهجير من الأندلس وبعده، كما بحث في خصوصيات الطائفة اليهودية الاجتماعية والدينية والفكرية في فترة امتدت من القرن الخامس عشر وحتى بداية القرن العشرين. وظل وفيا للمهمة التي ألقاها على عاتقه عقودا من الزمن، متجاوزا عقدة الآخر، دون الفصل بين الثقافات والديانات، وهو يصر على أن يظل وفيا لمهمته وقناعته منذ أكثر من ثلاثين عاما؛ وذلك بضرورة عدم التخلي عما علمه إياه التاريخ، وأنه لا بد من أن يحاول النظر إلى الأشياء من الداخل متجاوزا حواجز الغيرية، وأن يحتفظ دوما بالمسافة الكافية التي تسمح له بالنظر والفهم. إن الذي يحقق المستقبل الأفضل والأحسن هو الذي يترك جذوره تمتد عميقا في الماضي.

ويلفت إلى أن غاية المشروع الزعفراني، بعد بعث وإحياء التراث اليهودي في الأندلس والمغرب، كانت حث بني جلدته على العودة إلى ماضي أجدادهم الفكري والتمسك به؛ لأنه هو حجر الزاوية في صناعة التاريخ أولا، والحفاظ على الهوية الثقافية المعرضة للضياع ثانيا. إنه مشروع نهضوي يقوم على الرجوع إلى السلف اليهودي في الأندلس والمغرب.

ويوضح أن الزعفراني درس أشكال الفكر اليهودي في الغرب الإسلامي في فترة بدأت بالهجرة وانتهت بالهجرة؛ الهجرة من الأندلس في اتجاه المغرب خلال القرن الخامس عشر الميلادي، ثم الهجرة في اتجاه إسرائيل أو بعض الدول الأخرى خلال القرن الماضي؛ وتعد هذه الفترة بالتحديد فترة تذكر يهود اليوم بالحنين إلى الوطن؛ حنين يبعث على الشعور بالحزن والأسى عن فقدان وطن وجدوا فيه الأمن والحوار والتعايش، ولم يشعروا يوما بأنهم أغراب، كما هو الشأن اليوم في بلدان أخرى بما في ذلك إسرائيل؛ ولعل هذا الشعور هو الذي رفضه الزعفراني، وقرر الرجوع إلى ماضي الأجداد وبعثه قصد الاعتزاز به رافضا ما أسماه بالتاريخ المليء بالدموع.

وفي رأي المؤرخ فإن التاريخ الذي يعود إلى ألفي سنة على أرض المغرب المعطاء يكون ذاكرة يهودية مغربية، يتردد صداها في روح المهاجرين، حيث تدوي في موسيقاهم وغنائهم، في فلكلورهم وشعائرهم، في احتفالهم بلالة ميمونة والهيلولا، وفي مزاراتهم الجماعية لقبور أوليائهم المحليين، مثل الربي "عمرام بن ديوان" في وزان، و"مولاين داد" بسطات وغير هذين.

والأمر أكثر عند المهاجرين الذين أقاموا في إسرائيل؛ فذاكرتهم تنبئ عن نفسها في حنينهم إلى الوطن وأسفهم الحزين وأزماتهم المريرة أو التي يثيرها الحنين الدفين، وفي كتاباتهم الغاضبة أو الهادئة. وتعبر هذه الذاكرة عن نفسها ببراعة في الخلق الأدبي العبري الناشئ لدى بعض الأدباء من أصل مغربي، وبالأخص في رهافة الشعراء الشباب الذين عبروا في آثارهم الأدبية الجيدة عن الروح المكلومة والثقافة المهمشة أو المهانة وقساوة العيش التي يعانيها شتات ثان. إنه التاريخ الذي عرف منه اليهود على أرض المغرب الوجه الوضاء وحرارة العاطفة والأفراح والأحزان.

ويرى شرماط أن ما ذكره الزعفراني لم يأت من الماضي الذي كرس له ربيع عمره، بل من واقع يختلف كل الاختلاف عن الماضي، واقع الشتات الثاني، حيث أصبح اليهودي يحن إلى الماضي أكثر من الواقع الذي يعيش فيه؛ لأنه ترك وطنا يشهد له التاريخ بالتقاء الحضارات والثقافات، واتجه نحو مجتمع لم يبلغ بعد طور المجتمع المتبلور المنسجم، بوصفه مجتمع هجرة، تكون في فترة زمنية قصيرة عبر موجات متتابعة من الهجرة اليهودية.

صحيح أن يهودا هاجروا إلى بلدان أخرى، وفضلوا الاستقرار فيها، مثل فرنسا وكندا وأميركا اللاتينية، غير أن نسبة أخرى فضلت الوجهة نحو إسرائيل بفعل جهود الحركة الصهيونية ومنظمتها السرية، هذه الحركة التي سعت في ما بعد إلى طمس الهوية الثقافية ليهود المغرب والمشرق، وتحويلهم إلى يهود غربيين، الأمر الذي ولد المعاناة لديهم، وقد عبر عن ذلك شباب من اليهود الذين أحسوا بالأسى والمعاناة من الحقد والتمييز العنصري.

ويخلص شرماط إلى أن ما قدمه الزعفراني عن اليهود من أبحاث يعد مخزونا علميا يحظى بالاهتمام والدرس؛ ذلك أن الرجل انكب على البحث منذ خمسة عقود من الزمن قصد بعث فكر يهودي ظل حبيسا لسنوات طوال، ومن خلاله حاول إثبات هوية يهودية، انطلاقا من كتابات خلفها يهود أسلاف، سواء تعلق الأمر بالتربية أو القانون أو الإبداع الشعري أو التفسير التلمودي أو النثر الفني أو الكتابات الصوفية والسحرية.

«كلمات من الشرق».. مخطوطات يناهز عمرها الألف عام في الشارقة

الشارقة – افتتحت هيئة الشارقة للكتاب الثلاثاء فعاليات معرض "كلمات من الشرق"، الذي يمثل فرصة للاطلاع والتعرّف على مجموعة واسعة من الكتب والوثائق والقطع الأثرية النادرة من المقتنيات المحلية وأخرى مما تعرضه متاحف العالم.

ومن خلال هذا المعرض تستضيف الهيئة خلال الفترة من 27 أبريل الجاري إلى 3 مايو المقبل بمقرها مقتنيات وكتبا ومخطوطات من مختلف بلدان العالم يعود تاريخ بعضها لأكثر من 800 عام ماضية وتقدر قيمتها بأكثر من 60 مليون درهم.

وينظم المعرض الذي يفتح أبوابه للزوار يوميا من الثامنة مساء حتى منتصف الليل ابتداء من الأربعاء عددا من الجلسات النقاشية والندوات يقدمها مجموعة من الخبراء والمتخصصين في التاريخ والآثار للوقوف عند دور المخطوطات والوثائق في الكشف عن منجزات وعلوم وسير الشعوب والثقافات حول العالم، يتناولون خلالها راهن ومستقبل المخطوطات في العالم ودورها في حفظ سيرة الشعوب وتوثيق ملامحها الثقافية ومنجزاتها المعرفية.

ويعقد المعرض جلسة بعنوان "المخطوطات في عصر التحول الرقمي"، يناقش فيها كل من الدكتور عبدالواحد النبوي وزير الثقافة المصري الأسبق وأستاذ التاريخ في جامعة الأزهر، والدكتور محمد كامل مدير المخطوطات في مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث بدبي، مراحل تطور العمل المرتبط بالمخطوط وآلية الاستفادة من أدوات ومعطيات الواقع الرقمي الذي أتاح العديد من الفرص لحفظ نسخ رقمية من المخطوطات إلى جانب فرص تبادلها رقميا بين مراكز البحث والجامعات والمكتبات والعديد من النقاط ذات الصلة.

وقال أحمد بن ركاض العامري رئيس هيئة الشارقة للكتاب "نفتح من خلال معرض 'كلمات من الشرق' الباب أمام الجمهور للاطلاع على مخطوطات وكتب يعود تاريخها إلى المئات من السنين، وتوثق لأحداث ومعارف غيرت تاريخ المنطقة والعالم، لنؤكد بذلك على رؤية الشارقة التي تؤمن بأن المعرفة رحلة متواصلة وتراكمية وقراءة تاريخها بوعي تفتح أمامنا فرص صناعة المستقبل والنهوض بطاقاته".

وأضاف "لا يجسد المعرض رحلة في تاريخ معارف وعلوم قدمها علماء وباحثون منذ قرون وحسب، وإنما يعد شاهدا حيا على جماليات الفنون المستخدمة في صناعة الكتاب قديما إلى جانب أنه يكشف حجم الجهد الذي بذله العلماء للمساهمة في بناء الحضارة الإنسانية وهو ما يشكل دافعا كبيرا للأجيال الجديدة للعمل والبحث وإدراك أن المعرفة لا تقدم خيرها إلا للمجتهدين والعازمين على خدمة أوطانهم والإنسانية جمعاء".

وتابع رئيس هيئة الشارقة للكتاب "نوجه من خلال المعرض رسالة للأجيال الجديدة، نؤكد لها أن كل ما نعيشه اليوم من تطوّر ونقلة تكنولوجية معاصرة لم يكن ليتحقق لولا مسيرة طويلة خاضها علماء ومبدعون ومفكرون خلال المئات من السنين الماضية، قدموا فيها معارف كبيرة، ومهمتنا اليوم أن نستكمل هذه المسيرة ونحقق إنجازات جديدة تضاف إلى تاريخ الإنسانية".

المخطوطات ساهمت في بناء الحضارة الإنسانية

ومن أبرز ما يستضيفه المعرض الإصدار الأول من موسوعة "وصف مصر" الذي يأتي في 23 مجلدا مع 935 رسما ويعتبر خلاصة جهد مجموعة من العلماء والفنانين والمختصين بدراسة حملة نابليون بونابرت على مصر، وتمثل الموسوعة أكبر عمل مخصص لدراسة حياة شعب من الشعوب وهي حتى اليوم أحد أهم المصادر التاريخية.

ويمكن لزائر المعرض الاطلاع على الإصدار الأول لتحفة أعمال المؤلف العثماني الكاتب شلبي وهو كتاب بعنوان "جهان نما – مرآة العالم" الذي جاء بطبعة "إبراهيم متفرقة" في القسطنطينية عام 1145 هـ (1732 ميلادي) ويضم 40 خارطة ورسما من أبرزها خارطة شبه الجزيرة العربية ونماذج فلكية للكون وغيرها.

ويضع المعرض زواره أمام كتاب "الرحلة إلى بلاد فارس" للمستشرق أندريان دوبري الذي نشر عام 1819 ويروي فيه تفاصيل رحلته إلى آسيا الصغرى وبلاد ما بين النهرين وتركيا وأرمينيا وبلاد فارس.

> المعرض شاهد حي على جماليات فنون صناعة الكتاب ودليل على المنجزات العلمية الإنسانية ودعوة للحفاظ عليها

كما يعرض مجموعة من مجسمات الكرة الأرضية التي تعود للحقبة من القرن السابع عشر إلى القرن العشرين وأبرزها مجسم للكرة الأرضية ومجسم للكرة السماوية بقطر 49 سم قام بتلوينها الفنان ماتايوس جروتر وصدرت في روما بين عامي 1632 و1636 وغيرها العديد من الكتب والوثائق والقطع الأثرية النادرة من المقتنيات المحلية وأخرى مما تعرضه متاحف العالم.